رأي القدس

نتائج «ملغومة» لجولة رايس

■ اجتمعت السيدة كوندوليزا رايس وزيرة الخارجية الامريكية امس مع ثمانية وزراء خارجية دول عربية، وكان الملف النووي الايراني وكيفية مواجهته البند الأكثر أهمية على جدول اعمال اللقاء، رغم الاحاديث العلنية عن ملفات اخرى مثل العراق ولبنان وفلسطين.

السيدة رايس تهدف الى تشكيل تكتل اقليمي جديد يحمل اسم «اعلان القاهرة» على غرار تكتل «اعلان دمشق» الذي تشكل في اعقاب اجتياح العراق للكويت وضم الدول نفسها باستثناء الاردن الذي حل محل سورية في المحور الجديد.

الادارة الامريكية اوفدت السيدة رايس الى المنطقة، انطلاقا من حاجتها الى غطاء عربي اسلامي، في حال اعلانها الحرب على ايران، تماماً مثلما احتاجت الغطاء نفسه لتبرير حربها على العراق ونزع اسلحة الدمار الشامل التي كانت في حوزته تحت عنوان «تحرير الكويت».

وكان لافتا ان السيدة رايس حسمت أمر الملف الايراني، عندما قالت في المؤتمر الصحافي الذي عقدته في جدة بعد ختام مباحثاتها مع المسؤولين السعوديين «مازلنا نأمل ان توقف ايران انشطة التخصيب، ولكن ليس لدينا دليل على انها ستفعل ذلك، وهكذا فان الخيار الوحيد امام المجتمع الدولي هو فرض العقوبات تنفيذا لقرار مجلس الأمن رقم 1696».

وفرض عقوبات على ايران يتطلب تعاون دول الجوار، والعربية منها على وجه الخصوص، تماماً مثلما فعلت الدول نفسها في حال الحصار على العراق قبل غزوه واحتلاله، الأمر الذي سيضع هذه الدول في خندق المواجهة مع ايران بطريقة مباشرة.

ويبدو من خلال جولة السيدة رايس واجتماعاتها مع وزراء الخارجية العرب الثمانية ان الادارة الامريكية صرفت النظر عن مخططاتها السابقة لنشر الاصلاحات الديمقراطية في المنطقة، فجميع وزراء الخارجية الذين اجتمعت بهم السيدة رايس يمثلون دولا ديكتاتورية (باستثناء الكويت) وتنعدم فيها الحريات باشكالها كافة، ويغيب القضاء المستقل.

وقد اصيبت القوى الليبرالية في المنطقة العربية باحباط كبير من جراء هذا التغير في الموقف الامريكي، فالسيدة رايس لم تتحدث مطلقا عن الاصلاحات الديمقراطية في المؤتمرات الصحافية التي عقدتها، ولم تحرص على لقاء اي من قادة المجتمع المدني او المعارضة في الدول التي زارتها، وفضلت ان تبذل كل ما في جعبتها من جهود من اجل كسب الانظمة الديكتاتورية الحالية في المنطقة، الامر الذي يؤكد شكوك الكثيرين بان الادارة الحالية تستخدم مسألة الديمقراطية والاصلاحات كاوراق ضغط على الانظمة لتخويفها ودفعها لتقديم التنازلات التي تريدها واشنطن في العراق وفلسطين ولبنان.

ومن المفارقة ان المسؤولين الامريكيين يروجون بان المحور الجديد ليس فقط محور المعتدلين بل هو محور البنائين الذي سيواجه محور التدمير الذي تمثله ايران وسورية وحزب الله وحماس.

واقع الحال ان العكس هو الصحيح، فمحور المعتدلين هو الذي اقدم على تدمير العراق وافغانستان، وهو الذي يقف خلف تجويع الشعب الفلسطيني وسلطته المنتخبة.

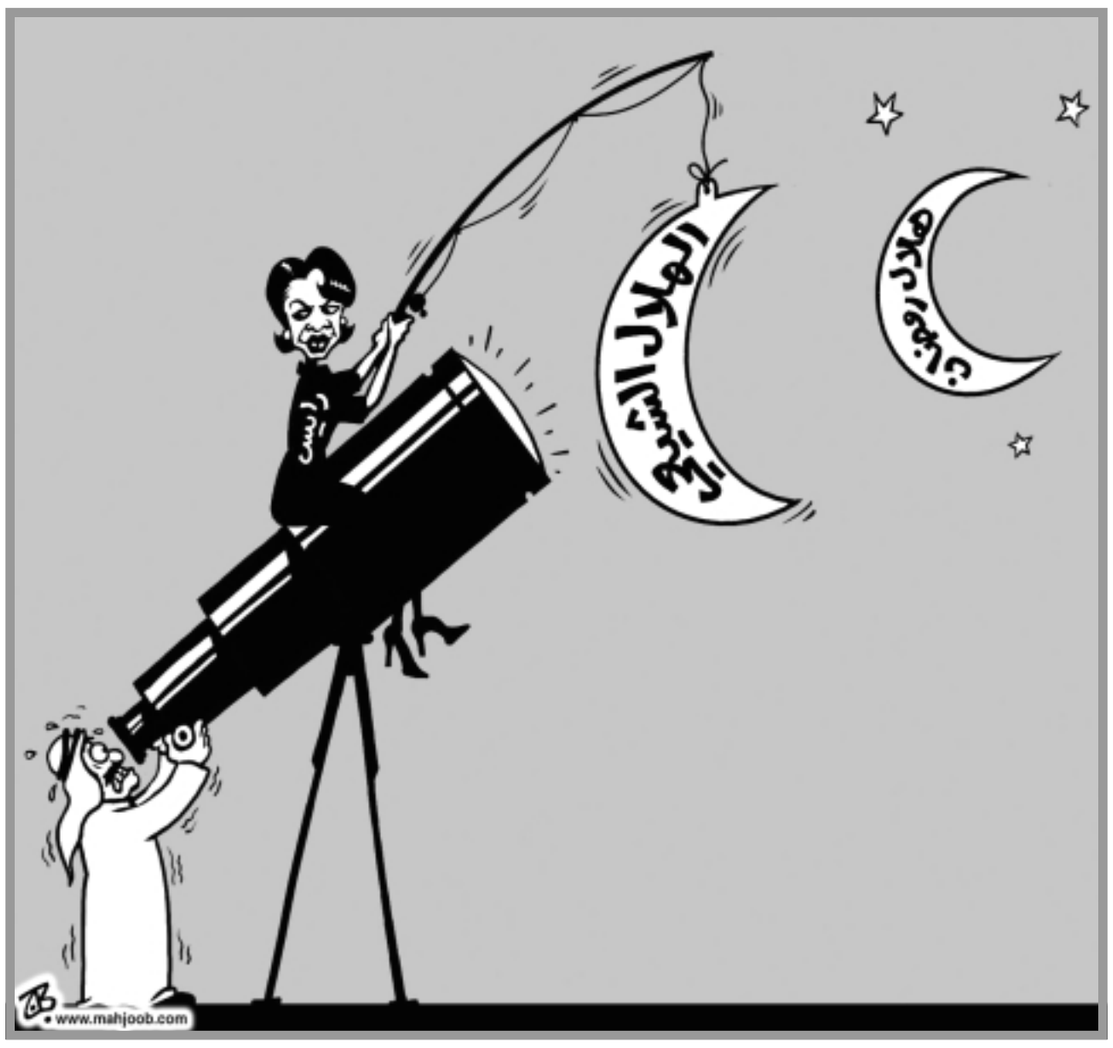

الخوف من المنزلق في لبنان

محمد كريشان

■ في لبنان هذه الأيام ظاهرة ليست جديدة بالتأكيد لكنها تزداد اتساعا يوميا بشكل يبعث على القلق: خطب في كل الاتجاهات ومؤتمرات صحافية وجماهير واسعة تتابع بإعجاب هؤلاء أو اولئك. المسألة لا يبدو فيها للوهلة الأولى ما يزعج بل إنها سمة حياة تعددية حية. وهذا صحيح لولا بعض الملاحظات المكدرة لما يفترض انه كذلك.

كل واحد الآن من الفرقاء السياسيين حاليا يذهب بعيدا في تقريع خصومه والتشهير بهم أو حتى الاستهزاء بهم ثم تراه في نفس الوقت يؤكد على ضرورة العيش المشترك معه والتوافق على أساس أن البلد لا يمكن أن يحكم من طرف واحد.

هذا الفريق وذاك وفي طرحه السياسي الذي لا يرى فيه من هو في لبنان على حق سواه يجعلك تسأل، رغما عنك، مع من سينسق صاحبنا إذن أو يتعاون ولا نقل يحكم. فاللهجة الإقصائية مع الدعوة إلى التوافق والتآزر والحفاظ على الوطن لا تبدو بهذا الشكل على الأقل متماسكة حتى لا نتحدث عن صدقها من عدمه. وعندما تتابع خطاب هذا الفريق أو ذاك تجد فيه عموما منطقا داخليا مترابطا في تقديره لوضع البلاد والتحديات التي تحيق بها، مع لازمة التهديد بكشف المزيد، ولا ندري ما الذي لم يكشف بعد في لبنان. وحيث ان الحقيقة لا يمكن أن تكن عند الجميع مرة واحدة، وبهذا التناقض الصارخ أحيانا، فهي بالتأكيد موزعة بينهم بقدر أو بآخر مع أن كل حزب بما لديهم فرحون.

في الهبة الشبابية الجماهيرية الواسعة التي أعقبت اغتيال رئيس الوزراء رفيق الحريري، خرج الجيل الجديد في لبنان الذي عايش بعضه نهايات الحرب الأهلية المدمرة وبدايات الاستقرار وعودة الإعمار ناقما على أمرين أساسيين: أولا الوصاية السورية على بلاده ولو باسم الأخوة والمصير المشترك وثانيا هذه الطبقة السياسية في البلاد التي ما زالت تفرخ نفس السلالات ونفس الأمراض. ما الذي حصل الآن بعد زهاء السنتين من صرخة الغضب الشبابية الكبرى؟ الذي حصل أن الوصاية على البلاد ما زالت قائمة فقد عوضت الوصاية القديمة التي لم تختف بالكامل بوصاية جديدة دولية هذه المرة أطلت خجولة في البداية ثم اتسعت تدريجيا إلى أن استقرت سافرة بعد نهاية الحرب الإسرائيلية الأخيرة على لبنان فيما بقيت ذات الطبقة السياسية جاثمة على مفاصل الحياة تعيد إنتاج نفس الأخطاء بنفس الأساليب القديمة.

إذا ما تركنا شق الوصاية وتشعباته وتحدثنا فقط عن هذه الطبقة السياسية فلا بد من القول إن هذه الطبقة لا يمكن أن تختفي. فجذورها ضاربة في تاريخ البلد وتقاليده في السياسة والحكم. ولكن اللافت أن لأزعامات حقيقية جديدة طفت على السطح فلم يكن مطلوبا أن يستمر إلى الأبد توارث قيادة التيارات حتى صرنا نرى أغرارا من كل الاتجاهات لا يكاد يفقهون شيئا ومع ذلك يلقون تلك الخطب العصماء المكتوبة بحمية واضحة في الجماهير الحاشدة.

الشاهد في الموضوع اللبناني كله الآن أنه قد يصبح مكلفا للغاية للبلاد واستقرارها أن يستمر كل طرف في حشد الشارع وتجييشه بالخطب الحماسية والتحريضية في حدود متفاوتة ثم الزعم المشترك بالرغبة في وحدة البلد وتماسكها وحكمها التوافقي التعددي بالمعنى السياسي والطائفي. فإما أن يتنازل كل فريق عما يراه هو «الحقيقة الكاملة» للوضع في البلاد ويتواضع قليلا في احترام غيره وضرورة التفاهم معه على الحد الأدنى وإلا فإن الأمور قد تسير، بغض النظر عن الإرادات أو التخطيط المسبق، إلى مواجهات مفتوحة قد تطول، ليست بالضرورة عسكرية، ولكنها مواجهات ديدنها المناكفة والغمز واللمز الذي ما ان يلقى في أوساط مشحونة ومحتقنة أصلا فلا أحد يمكن أن يتحكم عندها في تداعياته بين أوسع الفئات الشعبية. ساعتها قد يتدحرج الوطن، لا سمح الله، بين أرجل الصارخين باستمرار أنهم الأحرص في الدفاع عنه وفي صيانة العيش المشترك بين أبنائه.

رايس في الرياض: أعلنوها أمة «شنية» واحدة

د. مضاوي الرشيد *

■ تطوف وزيرة الخارجية الامريكية كوندوليزا رايس عواصم عربية ربطت مصيرها بالمشروع الامريكي الجديد للمنطقة. فبعد القاهرة وعمان جاء دور المحور الرئيسي لا لشيء سوى لانه يمتلك من الثروة الاقتصادية ما يمكنه من تحويل هذا المشروع من حلم الى حقيقة. محور الرياض هو الأهم في الزيارة لأنه الوحيد المستعد لتسخير طاقته النفطية في مشاريع كنس المنطقة من النفايات التي خلفتها القوة الامريكية المحتلة والتداعيات السياسية والفوضى التي نتجت عن هذا الاحتلال. القيادة السعودية ما زالت مستعدة لتسخير ثروتها في سبيل تثبيت المشروع الامريكي الهادف الى تحالف ما يسمى بالمعتدلين ضد عدو الولايات الامريكية حاليا ايران تحت ذريعة محاربة المشروع النووي الايراني.

وجدت رايس في الرياض من سيتزعم الاعتدال المزعوم وينفق عليه الاموال الطائلة فهو دوما مهيأ لتجييش الخطاب السياسي والديني في سبيل ارضاء حماة النفط خاصة في مرحلة تنعدم فيها القوة المحلية الحقيقية القادرة على التصدي لعدوان تقنعنا الولايات المتحدة انه آت من طهران. وهذا ليس بالجديد في منطقة الخليج اذ انه خلال العقود السابقة استطاعت الولايات المتحدة ان تجند المنطقة ضد ايران بعد ثورتها عام 1979. وها هي رايس اليوم تحاول ان تلعب اللعبة ذاتها لتشتعل المنطقة من جديد بمباركة امريكية. هذه المباركة مضطرة ان تعتمد على من سيدفع الفاتورة الجديدة ويسوق للمشروع الامريكي الطامح للهيمنة.

تختلف المواجهة الحالية المتوقعة بين «العرب» و«العجم» عن سابقتها في الثمانينات رغم ان هناك بعض العوامل والمعطيات المشتركة بين الحقبتين التاريخيتين.

في الحقبة الاولى صور النزاع وكأنه نزاع بين قوميتين عربية وفارسية الاولى اعتبرت مهددة من قبل العدو الفارسي القديم رغم التحول التاريخي الذي طرأ على ايران عندما تبنت الخطاب الاسلامي الذي يطبعه يتجاوز محور القومية الضيق. وجدت الولايات المتحدة وحلفاؤها في جزيرة العرب في الشاويش العراقي خير منفذ للسياسة الامريكية العريضة. اما اليوم وبعد ان سقط هذا الشاويش خلت الساحة من شخصية قادرة على التنفيذ. لذلك جاء دور البحث عن محور أوسع من محور الثمانينات وخطاب تعبوي يتعاطى مع التقسيمات الحاصلة حاليا في المنطقة. تريد رايس من حلفائها ان يتسموا بسمة واضحة تحت مظلة الانقسام التاريخي بين السنة والشيعة لتصبح هذه المظلة غطاء لسياسة التقسيم والتفتيت المرجوة من الخارج.

الترويج للصبغة السنية للمحور الجديد سبقه حديث وثرثرة عن هيمنة شيعية على الارض برزت بوضوح في خطابات القاهرة وعمان والرياض. والآن جاءت الزيارة الامريكية لتجند ما تبقى من دويلات الخليج حتى يكتمل النصاب في سبيل مواجهة ايران الشيعية وحلفائها في المنطقة من حزب الله في لبنان مرورا بدمشق وانتهاء بالاطياف الشيعية التي لم تروض بعد في العراق. تقسيم المنطقة الى هلالات شيعية واقمار سنية هي عودة فاشلة لاختلافات عقدية تاريخية اثبتت السياسة انها قادرة على تجاوزها. لكن هذا التقسيم سيجد اذانا صاغية مستعدة ان تقتبسه وتتبناه للمحافظة على عروش بالية. هذه العروش مستعدة دوماً لشق الصف ان كان هذا يخدم مصلحتها وديمومة وجودها.

قد تستنتج رايس ان مهمتها سهلة جدا في القاهرة وعمان والرياض ولكنها ستجد صعوبة في اقناع البعض في الخليج. رغم الاحتقان الشعبي المصري تظل القاهرة مستجيبة للمشروع الامريكي وكذلك عاصمة دولة الـBuffer Zone بين اسرائيل والعرب. اما الرياض فهي العاصمة الأكثر تقبلا للتقسيم الامريكي الجديد حيث ان فيها من الارث الثقافي والديني ما يجعلها تتصدر المشروع الطائفي الجديد وليست بحاجة الى استنساخ فتاوى جديدة ومواقف سابقة قد اصل لها الكثير من علماء المملكة. وان انتقلت رايس الى دويلات الخليج فربما أنها لن تنجح خاصة في المواقع ذات الحراك الشيعي الواضح كالكويت والبحرين. فرغم ان القيادة في هذين البلدين قد تبدو مستعدة ظاهريا لتبني التقسيم الجديد الا انها ستدخل في متاهات خطيرة أن هي تمادت في تفعيل خطابات طائفية خاصة وان جزءا كبيرا من مواطنيها قد يتجاوز الخطابات الوطنية وشعاراتها ليتقوقع خلف هويات طائفية ضيقة مفجرا بذلك النسيج الاجتماعي وحالة التعايش القائمة ولو كانت هشة بعض الاحيان.

اما في مسقط ستجد رايس ان القيادة هناك استطاعت منذ الثمانينات ان تعزل نفسها عن تداعيات الحروب السابقة وتتبنى نوعا من الحيادية التي تجنبها الانخراط في متاهات الحروب الامريكية على المنطقة.

لذلك ركزت رايس في زيارتها الى الرياض على الدور الرئيسي الذي تهيئ هي نفسها المحور السعودي لتقبله ولعب الدور الريادي في تفعيله. الرياض فقط مستعدة لتفعيل ثروتها لسببين: اولا لانها تعتقد ان الدور القيادي سيجلب لها بعض الابهة والأهمية في منطقة قد افلتت من قبضتها. منذ عقد تقريبا لم تستطع السعودية ان تتربع على عرش قادر على ريادة العالم العربي ولا ان تغير الانحدار وحالة التشرذم. افلت منها العراق منذ احتلاله والآن لبنان رغم انها انفقت الملايين على تدعيم هيمنتها في هذين البلدين. حاولت السعودية التعويض عن انحسار هيمنتها الاقليمية بالاتجاه تارة نحو اليمن وتارة نحو عمان بعد الفتور الذي حصل في مطلع التسعينات في العلاقات والذي نتج عن الموقف الاردني واليمني من حرب الخليج. وتعثرت علاقتها مع سورية الابن بعد فترة رخاء مع سورية الاب واليوم لم يبق من هذه العلاقة سوى الملاسنات والعتب الثقيل. تزعم العالم السني لن يعيد للسعودية اي دور في المنطقة لانها ربطت مصيرها بمشروع امريكي فاشل منذ البداية.

ثانيا: تعتقد السعودية انها ان لعبت دور قيادة العالم العربي السني ستستطيع ان تتغلب على مشاكلها الداخلية الحالية وتجيش شعبها ضد العدو الخارجي المعروف حاليا انه عدو شيعي. اكثر من اي وقت مضى نجد ان القيادة السعودية محتاجة لعدو خارجي من أجل توحيد الصفوف الداخلية المنشقة حاليا بشكل واضح وصريح. اي مواجهة في الخليج تحت شعار الدفاع عن السنة ستجد اذانا صاغية وتؤجل المواجهة الحتمية الداخلية بين التيارات المتصارعة على الساحة السعودية من ليبرالية واسلامية وجهادية وبين كل هؤلاء والقيادة ذاتها. سيتغنى ليبراليو السعودية بخطاب الوطنية المزعومة للترويج للحرب القادمة على صفحات الجرائد السعودية وسيضخمون مشاريع ايران النووية. اما الاسلاميون فسيرون في هذه المواجهة مع ايران فرصة لنصرة السنة وان كانوا سينقسمون فيما بينهم كما انقسموا خلال اشهر الصيف الماضية في موقفهم من نصرة حزب الله اللبناني بين متزمت يرجع الى خلافات عقدية ليسقطها على الواقع السياسي الحالي وبين مرن يخاف ان يخسر جمهوره ان هو ارتمى في احضان القيادة بشكل كلي وشامل وتبنى مغامرات ولاة الأمر اذ ان التيار الاسلامي في السعودية مستعد لان يعلق كل مآخذه على القيادة ولكنه سيظل يتبنى خطاب المواجهة مع اسرائيل وامريكا كأن هذه المواجهة تعويض عن خسائره الناتجة عن صمته المريب تجاه قيادته الحالية وسياستها الاقليمية.

بالطبع لن تجد رايس في الرياض شاويشا جديدا تعتمد عليه عسكريا ولكنها ستجد اطيافا ملونة قادرة على نبش مخزونها الديني والثقافي من أجل مشروع الحرب السنية ـ الشيعية القادمة. وستجد ثروة نفطية لا تخضع للمحاسبة او الشفافية بل هي ما زالت قيد الاحتكار والسرية توزع حسب ما تراه القيادة ضروريا لاستمراريتها وديمومتها. وان كنا لا نعول الكثير من الأمل على مناورات القيادة السعودية الا اننا نرجو من الاطياف الشعبية ان تعي مسؤوليتها التاريخية ولو مرة واحدة وتصرخ في وجه رايس وزبانيتها بصوت واحد ان التقسيم السني ـ الشيعي المفروض على المنطقة حاليا لن يمر بسهولة مهما صرف عليه من اموال وسكب فوقه من الحبر ما سيغرق صفحات جرائد تذهب الى مزبلة التاريخ ومحرقة الفكر المأجور.

هذه المسؤولية التاريخية تتطلب من الجميع ان يقفوا صفا واحدا ضد التحزب الطائفي المقيت ويعلنوا على الملأ اننا امة «شنية» واحدة.

* كاتبة واكاديمية من الجزيرة العربية

مأزق الليبراليين الجدد: ماذا بقي من العولمة والشرق الاوسط الكبير؟

معن بشور *

■ حين خرج علينا منظرو العولمة قبل حوالي العقدين من الزمن، حاملين وعودا بعالم خال من الحدود، تنساب فيه المعلومات والرساميل والسلع والاشخاص بسيولة بالغة، متحولا بفضل ثورة الاتصالات وتقنياتها المتطورة الى قرية الكترونية.

في هذا العالم «المعولم» لن تكون هناك بعد الآن ـ حسب نظريتهم ـ حاجة للحروب والاضطرابات بل انصياعا لقطب واحد، لا منافس له، ليقودنا جميعا ومرتكزا في قيادته على مفاهيم الحرية وحقوق الانسان التي باتت ترقى الى مرتبة القانون الانساني الدولي الذي يجيز تدخل البشرية في أية دولة تنتهك هذه المبادئ او نظام يسعى الى تجاوزها.

ولم تمر سنوات عديدة الا وبهذه العولمة تصبح، بفعل الحرب على ما يسمى بالارهاب، عولمة امنية حربية «تنساب» معها الاساطيل والجيوش الامريكية في كل مكان بدلا من الرساميل والسلع والمعلومات، وتنطلق تشريعات تحد من الحريات العامة والخاصة وتجافي بوضوح حقوق الانسان وتفتح المجال لابشع ممارسات التعذيب والاحتجاز غير القانوني والسجون المخابراتية السرية في دول كانت «تفاخر» بديمقراطيتها واحترامها لحقوق الانسان.

وفيما كان العالم ينتظر تسهيلات في التبادل التجاري، تتحول العقوبات الاقتصادية ضد الدول والشعوب الى ما يشبه السلاح اليومي بيد واشنطن تشهره في وجه اية دولة ترفض الاذعان لاملاءاتها على نحو لا يشكل نكسة للنظرية الليبرالية في الاقتصاد (وهي جذر فكر العولمة)، بل يشكل ضربة قاصمة للاعلان العالمي لحقوق الانسان الذي يرفض فكرة العقوبات الجماعية ضد شعوب وامم بسبب الموقف من حكام وانظمة.

وفي المنطقة العربية والاسلامية، كان مشروع الشرق الاوسط الجديد الذي طرحه شمعون بيريز، في اوائل التسعينات، هو الترجمة الاقليمية لمشروع العولمة على المستوى الكوني. حيث ظن بيريز انه مع المفاهيم الدولية الجديدة، وفي ظل نتائج حرب الخليج الاولى التي دمرت العراق القوي المنيع عام 1991، وبعد اتفاق اوسلو الشهير مع القيادة الفلسطينية، فان الظروف باتت مهيأة لاطلاق فكرة السوق الشرق اوسطية المفتوحة التي تشكل فيها تل ابيب القيادة الاقليمية، تماما كما تشكل واشنطن او نيويورك قيادتها العالمية.

فأين نحن اليوم من تلك الاحلام «الطوباوية» التي اطلقتها دول قوية، ونظر لها مثقفون، ووقعت في حبائلها اوساط وجماعات وحركات؟

لقد اسقطت الانتفاضة الفلسطينية فكرة السوق المفتوحة، لتقيم حكومة تل ابيب بدلا منها «جدارها العنصري الفاصل» حول كيانها الغاصب، فلا تتنازل بذلك عن طموح السوق الشرق اوسطية فحسب، بل لتصيب في العمق احدى الركائز العقائدية للمشروع الصهيوني الذي يعتبر ان «ارض اسرائيل تمتد من الفرات الى النيل».

اما فكرة العولمة ذاتها فأخذت تترنح تحت وطأة احتجاجات جماهيرية وتظاهرات كانت تلاحق انعقاد كل المؤتمرات المتصلة بها، بما في ذلك اجتماعات منظمة التجارة العالمية، من بلد الى آخر، واخذت تواجه تحديات من كل انحاء العالم لم تخفف من حدتها توصيفات الرئيس بوش لبعض الدول بانها «مارقة»، كما لم تنجح في لجمها حروب كبرى شنها البنتاغون في افغانستان والعراق، لا بل ان هذه الحروب قد زادت من اوضاع الهيمنة الامريكية تعقيدا بفعل المقاومة البطلة في العراق التي جعلت الرئيس الامريكي يعترف قبل ايام ان «مستقبل الولايات المتحدة يتقرر في شوارع بغداد» بعد ان ظن قبل اربع سنوات ان مستقبل العراق والمنطقة بأسرها يتقرر في اروقة البيت الابيض.

وفي الاطار ذاته لم تنجح محاولات انقلابية وتدخلات متعددة، كما جرى في فنزويلا، في ايقاف خطر تراجع واشنطن في حديقتها الخلفية في امريكا اللاتينية، خصوصا وقد تحولت هافانا، معقل الثورة الكوبية الصامدة بوجه حوالي نصف قرن من الحصار والتهديد، الى عاصمة لانبعاث حركة عدم الانحياز من جديد.

كذلك لم تنجح تهديدات ومداخلات في ثني كوريا الشمالية عن مشروعها النووي الحربي ولا في اجبار ايران على وقف مشروعها النووي السلمي.

ولقد وصلت ذروة هذا المأزق الفكري والعملي لمشروع «العولمة» هذا، مع تصميم الادارة الامريكية على بناء جدار فاصل مع جارتها المكسيك لمنع تسلل المكسيكيين الى الولايات المتحدة. وقد باتت عاجزة عن استيعاب مهاجرين جدد في ظل اقتصاد متعثر وقاصر عن حماية «دولاره» الذي خسر ما بين 30 ـ 40 % من قيمته، وعن وقف الارتفاع الصاروخي في الدين العام وصل حدود 4 تريليونات دولار (اربعة الاف مليار دولار)، وعن الحيلولة دون التصاعد الملحوظ في عجز الموازنة وقد وصل الى حوالي 400 مليار دولار، وهو الرقم ذاته الذي وصلت اليه النفقات العسكرية الامريكية السنوية وبينها 70 مليار دولار لتمويل العمليات العسكرية سنويا في العراق وافغانستان.

وكما اعلن جدار «الفصل العنصري» في فلسطين المحتلة وصول المأزق العقائدي والعملي للسوق الشرق اوسطية المفتوحة وللمضمون التوسعي للمشروع الصهيوني الى ذروته الحادة، خصوصا بعد ان تبين ان هذا الجدار لم يعد يشكل، بعد صواريخ المقاومة اللبنانية، اية ضمانة امنية لسكان المستعمرات والمدن الصهيونية، فان «الجدار الفاصل» مع المكسيك قد شكل ايذانا باعلان صريح للمأزق الفكري والعملي لنظرية «العولمة» و«السوق العالمية المفتوحة» التي تربكها ايضا الاجراءات المتشددة التي تتخذها الدول الصناعية الكبرى لمنع تدفق هجرة مواطني الدول الفقيرة لها في تناقض صريح مع احدى ابرز ركائز العولمة وهي تسهيل انتقال الاشخاص بين دول العالم.

لكن الامر لم يتوقف عند هذا الحد، فكما ارتبك مشروع بيريز للشرق الاوسط الجديد امام الانتفاضة الفلسطينية والمقاومة اللبنانية والمواجهة الشعبية العربية للتطبيع، بل وبات صاحبه من وجوه الصف الثاني او الثالث في الطبقة السياسية الاسرائيلية، فان مشروع بوش للشرق الاوسط الكبير بات هو الآخر في حال من الارتباك الشديد قبل ان يخبو نجم بوش نفسه، ومعه نجم «المحافظين الجدد» الذين رسموا هذا المشروع وأوحوا لبوش انه سيصبح «رسولا» جديدا للحرية في العالم.

لقد غطى بوش مقاصده الحقيقية من هذا المشروع القائم على الهيمنة الامريكية والسيطرة الصهيونية على دول المنطقة من خارجها وعلى التفتيت الاهلي داخلها، بشعارات جذابة كنشر الديمقراطية والاصلاح والتحديث والمعرفة وتمكين المرأة الخ، وباعتباره انظمة الاستبداد والتخلف والتعصب الديني في المنطقة العربية والاسلامية هي المصدر الرئيسي لما يسميه بـ«حركات الارهاب»، وبقناعته ان تجفيف المنابع الفكرية والمالية لهذه الحركات لا يتحقق الا بنشر مبادئ الشرق الاوسط الكبير.

وظن كثيرون ان تغييرا جذريا قد وقع للسياسة الامريكية في المنطقة التي كانت تعتمد في نصف القرن الماضي على ركيزتين رئيسيتين اولهما، وبفارق كبير عن الثانية الكيان الصهيوني، وثانيهما الانظمة الصديقة لواشنطن، فاذا بها في ظل سياسة المحافظين الجدد، تنحو باتجاه الاستغناء عن هذه الانظمة لتبقي الاعتماد الاساسي على تل ابيب التي سارعت الى استغلال هذا التحول الامريكي لتقوم بعملية ابتزاز ضخمة لتلك الانظمة، وتنتزع منها تنازلات كبرى لم يكن سهلا انتزاعها في ظروف سابقة.

لكن هذا الاعتماد الوحيد الجانب على الكيان الصهيوني لم يكن ناجحا، بل انه بات مكشوفا ومترهلا بعد الهزيمة الصهيونية في لبنان في الحرب العربية السادسة، مثلما بات هذا الكيان مكشوفا ومترهلا في فلسطين المحتلة على يد صمود الشعب الفلسطيني العظيم، رغم كل محاولات الحصار والفتنة الداخلية، وباتت الادارة الامريكية ذاتها مكشوفة ومترهلة في الداخل والخارج بفعل المقاومة العراقية الباسلة والمقاومة الافغانية المتصاعدة والازمات الداخلية المتفاقمة.

هنا وجد الرئيس بوش، العنيد في طبعه، انه لا بد من العودة الى الاستراتيجية الامريكية التقليدية في المنطقة، اي الى اعتماد رئيسي على تل ابيب، مع اعتماد ضئيل على الانظمة العربية التي كانت تحاصرها لسنوات واشنطن «ومحافظوها الجدد» بدعوات الاصلاح والتحديث.

ولقد وجدت وزيرة الخارجية الامريكية السيدة كوندوليزا رايس (المعروفة بخلافاتها مع رموز المحافظين الجدد: تشيني ورامسفيلد كما كشف بوب ودوورد في كتابه الاخير: حالة الانكار) ان فرصتها باتت سانحة لكي تعتمد على «دول الاعتدال» العربي في تنفيذ السياسة الامريكية في المنطقة وان تستخدمها في حربها على «المتطرفين»، مسقطة بذلك مطالب الاصلاح والتحديث ونشر الديمقراطية، وساعية في الوقت نفسه الى تجديد سياسة الاحلاف والمحاور في المنطقة لتجديد خطة الحروب الاهلية العربية والاسلامية، والتي وصلت الى ذروتها في الثمانينات مع الحرب العراقية ـ الايرانية، وهي خطة مترافقة مع خطة اشعال حروب اهلية في الدول والمجتمعات التي لا تذعن لسياساتها، بما في ذلك فلسطين ولبنان والعراق.

وبهذا المعنى، فان الشعار الذي تجري في ظله زيارة رايس الى المنطقة «دعم قوى الاعتدال العربي» يشكل من الناحية الايديولوجية والسياسية تراجعا كبيرا عن مشروع الشرق الاوسط الكبير، ويوحي فعلا بالفرق بين ذلك المشروع الطموح الذي طرحه بوش بعد احتلال العراق وبين «الشرق الاوسط الجديد» الاكثر واقعية الذي لوحت رايس بولادته من «آلام المخاض اللبناني».

اذن نحن في المنطقة امام تراجع جديد عن واحدة من الافكار التي جرى الترويج لها في السنوات الاخيرة وتبشر بعصر من الديمقراطية واحترام حقوق الانسان، تماما كما نحن على المستوى الدولي امام تراجع يصيب في الصميم مفهوم العولمة وما يرافقها من ليبرالية سياسية واقتصادية مطلقة.

فبين الجدران الفاصلة، وآخرها الجدار مع المكسيك، وبين التقييد المتواصل لحقوق الانسان والحريات العامة والشخصية، وآخرها القانون الذي نجح بوش بتمريره مؤخرا في الكونغرس، وبين الافراط في استخدام العقوبات الاقتصادية ضد كل دولة ترفض الاذعان للاملاءات الامريكية، وآخرها التلويح باستخدامها حتى ضد دول رئيسية كالصين وروسيا، (فيما يخص الملف النووي الايراني) وبين مقايضة «الاصلاح والتحديث والديمقراطية» بالاعتدال في المنطقة العربية، نستطيع ان نلمح بداية اسدال الستار على مرحلة عقائدية وسياسية كبرى في الولايات المتحدة، وبهذا المعنى فـ«الليبراليون الجدد» الذين ملأوا الدنيا بنظرياتهم الترويجية للعولمة، مدعوون، قبل غيرهم، الى مراجعة نقدية جريئة لكل افكارهم، والدخول في مرحلة ينبغي تفحص معالمها بدقة والتأكد من طبيعتها الامريكية خصوصا اذا كانت هجومية استباقية ام دفاعية تأخذ شكلا هجوميا.

* كاتب من لبنان

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم
الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741 ـ 0208 (6 خطوط) ـ
فاكس: 8902 741 ـ 0208 أو 7637 748 ـ 0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 770594(37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.
هاتف/فاكس: 5066089 (9626)
مكتب باريس: هاتف ـ فاكس: 57364 420 (331)

Al-Quds Al-Arabi
daily Independent News Paper
Published In London, New York and Frankfurt by Al Quds Al- Arabi Publishing LTD
Circulated in Europe, Middle East, North Africa and North America.
Editor In Chief
ABDEL BARRI ATWAN

Head Office (London): 164-166 King Street, Hammersmith, London W6 0QU England
Tel: 0208-741 8008 (6 Lines) Fax: 0208-741 8902 / 748 7637
email: alquds@alquds.co.uk * Internet: www.alquds.co.uk
Cairo Office: 43 a Kasser Al Neel St, First Floor, Flat No (2).
Tel/Fax: (202) 3901523
Morocco Office: 80 Fal Ould Omeir Str. Flat No.7 - Rabat - Morocco
Tel/Fax: (212 37) 770594
Amman Office: Al Sahafa St. Badad Business Complex.
Tel/Fax: (9626) 5066089
Paris Office: Tel / Fax: (331) 420 57364